المعلم يعقوب حنا

١٧٤٥ — ١٨٠١

للأستاذ راغب عنان

في أول يوليو سنة ١٧٩٨ نزل الجنرال نابليون بجيشه الفرنسي على ساحل أبي قير ونجح في أقل من شهر في الاستيلاء على عاصمة مصر ليجعل منها نواة لامبراطورية فرنسية في الشرق تقف في طريق بريطانيا الى الهند. فقاومه المصريون والمماليك خير مقاومة ونازعوهم الأرض شبراً شبراً أما المماليك فقد فروا إلى الصعيد وجعلوا يقاومون الجيش الفرنسي دفاعاً عن كيانهم المهدد ونفوذهم الذي أوشك أن يزول. أما المصريون فقد ضنوا ببلادهم أن تقع في يد هؤلاء الفرنسيين فيقطعوا صلتهم بالسلطان رأس الاسلام وخليفة المسلمين فجعلوا يتحرزون كل فرصة سانحة ليهبوا في وجه قوات الاحتلال يقاومونها بما يملكون من آلات وأسلحة عتيقة.

والحق أن المصريين وحلفاءهم المماليك نجحوا في أن يقضوا مضاجع الفرنسيين ويجعلوا اقامتهم في البلاد على قدر كبير من الصعوبة حتى لقد أرسل إليهم نابليون لكسر شوكتهم في الصعيد حملة جنده بقيادة أمهر قواده هو الجنرال ديزيه ولكن في وسط هذا الظلام الدامس والعاصفة الهوجاء ظهرت جماعة من المصريين رأت في دياجير الظلام قبساً من الأمل في أن يخلصوا بلادهم من الحكم التركي الذي كان أشد أنواع الحكم وأكثره فساداً.

رأى هؤلاء النفعة انهم يستطيعون أن يخالفوا مواطنيهم في موقفهم من الفرنسيين ويكسبوهم من البلاد رغبة في اكتساب رضائهم فيتخذوا منهم نكاة يتكئون عليها لنيل بلادهما هي جديرة به من الاستقلال. بعيدة عن نفوذ الأتراك والمماليك الذين لا يعرفون من الحكم سوى استغلال البلاد أسوأ استغلال لمصالحهم دون النظر الى مصلحة المصريين.

ومن الطبيعي أن يثير موقف هؤلاء النفر من المصريين حنق اخوانهم الذين كانوا يعيشون بالحياة والرزق وينتهز الجبرتي مؤرخ هذا العصر بأفصح العبارات ، ولكن ذلك لم يكن ليفت في عضدهم أو يثنيهم عن غرضهم الذي وضعوه نصب أعينهم وهو مظاهرة الفرنسيين وتمكينهم من البلاد ضريبة لازمة سوف تمكنهم من الوصول الى غرضهم الأسمى وهو استقلال مصر .

وكان على رأس هذه الفئة رجل بعيد النظر ثاقب الفكر ذو عزيمة حديدية وارادة لا تلين ومقدرة جبارة هو المعلم يعقوب حنا .

ولد المعلم يعقوب حنا في ملوي من أعمال مديرية أسيوط سنة ١٧٥٠ من أسرة قبطية متوسطة وتعلم في كتاب القرية حتى أتقن العربية وأجاد الخط والحساب ثم تعلم الفرنسية فكان لها الفضل في توسيع دائرة أفكاره ليصل الى أرقى المناصب .

ودخل في خدمة المماليك فتعلم منهم الفروسية واللعب بالسيف وفن الادارة وبذلك توفرت له أركان من الثقافات قلما تتوافر إلا للنوابغ من الشباب حتى استطاع في مدة يسيرة أن يسكن الدرب الواسع في بيت كبير مملوء بالخدم والحشم وحتى أصبح يلقب عن جدارة واستحقاق بالمعلم يعقوب .

واذا ما استولى الفرنسيون على القاهرة أسرع بالانضمام إليهم وأسرعوا هم إليه إذ كانوا في حاجة إلى خبير بأحوال البلاد قادر على جمع ما تحتاجه الحملة من مؤونة فعيّن مديراً لحملة ديزيه ومرعان ما ظهرت كفاءته فيما وكل إليه من عمل خصوصاً تنظيم جباية الضرائب .

وقدر الفرنسيون المعلم يعقوب حق قدره حتى أهدى إليه الجنرال ديزيه سيفاً تذكاريًّا وإذا ما رحل نابليون عن مصر وعين مكانه الجنرال كليبر أستدعى المعلم يعقوب ومنحه رتبة الكولونل وأمر أن يكون له حرس خاص يحيط به ويقف ببابه . ورقاه الجنرال مينو الى رتبة الجنرال وألبسه بيده شارتها الذهبية .

ولقد رأى المعلم يعقوب أن لا تكون خدماته للفرنسيين قاصرة على مساعدتهم في النواحي المالية والادارية بل رأى أن يؤلف من المصريين وحدة عسكرية قبطية تساعد الفرنسيين وهي أول فرقة مصرية منذ أن احتلت الرومان قبل الميلاد المسيحي فرحّب الفرنسيون بفكرته حينما أتمهم بنشأتها ووكلوا تدريبها على النظم العسكرية الحديثة الى بعض ضباطهم وقد وصل هذا الفيلق الى ألفي شاب أظهروا جميعاً من الكفاية والشجاعة ما أرغم الفرنسيين على الاعتراف بهم والتنويه بكفايتهم .

ورغم ما بذله الجنرال يعقوب من خدمات لا تكفر للجيش الفرنسي ورغم ما كان يقوم به وزراءه من تمكينهم للبلاد فانه كان يرى بعينه الواعيه وفكره الثاقب وأفق تفكيره المتسع ان الفرنسيين لابد أن يخرجوا من مصر بسبب حرج موقفهم بعد أن انقطعت عنهم أسباب الاتصال بفرنسا فيجب ألا تعود مصر إلى يد الأتراك يسومون المصريين العذاب ويورثونهم الذلة والمهانة بل يجب أن تكون مساعدة فرنسا لمصر لنيل استقلالها هو جزاء ما قدّم إليهم ومعه الفيلق القبطي من خدمات أثناء اقامتهم القصيرة في مصر .

فاذا ما أرغم الفرنسيون على أن يرحلوا من مصر خرج معهم المعلم يعقوب على رأس وفد مصري يحمل معه مشروعاً خطيراً هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر .

وهنا نظهر الأغراض الحقيقية لما بذله المعلم يعقوب من خدمات للفرنسيين أثناء اقامتهم فلم يكن انشاء الفيلق القبطي إلا خطوة ضرورية في سبيل تمكين المصريين من أن يكون لهم دور فعّال في أحوال الأمة يوم يتركها الفرنسيون ويعود الأتراك والمماليك الى تنازع السيادة عليها من جديد .

ولن يكون هذا الدور فعالاً إلا إذا تدربت أفراد هذه الفرقة على النظم العسكرية الحديثة التي كتب لها النصر في معارك الاسكندرية والرحمانية والاهرام .

وفي ١٠ أغسطس سنة ١٨٠١ خرجت آخر فرقة من جيش الاحتلال الفرنسي على البارجة لابلاس من براريج الأسطول البريطاني وعليها الجنرال يعقوب ووالدته السيدة مريم وقرينته وكريمته وأخوه وابن أخيه فيوفار سيداروس وعدد كبير من المصريين أقباطاً ومسلمين ومنهم تكوّن الوفد المصري الاول للقضية المصرية . ولم يمض المعلم يعقوب بعد تركه مصر أكثر من ستة أيام قضى الأربعة الأخيرة منها يغالب المرض بكل صبر وشجاعة حتى أسلم الروح في الساعة السادسة والنصف من صباح ١٦ أغسطس سنة ١٨٠١ .

أما اليوناني اللذين سبقا مرضه فقد قضاها في اثارة القضية المصرية فلم يلبث أن انفصل بقائد البارجة البريطانية وأخذ يحدثه عما كان يجول في نفسه عن مستقبل بلاده واستقلالها ونوع الحكومة التي يمكن تأليفها فيها وأعطاه مذكرة ليرفعها إلى وزارة الخارجية البريطانية كما أرسل الى نابليون مذكرة أخرى يبسط فيها وجهة النظر المصرية وأرسل ثالثة إلى تاليران وزير الخارجية الفرنسية طالباً أن يتفضل باستقبال الوفد المصري

ليسعد له شعوبنا ما يسعى إليه .

وإذ المطلع على هذه المذكرات ليقف على صفحة ناصعة البياض تجعل المعلم يعقوب يقف على قدم المساواة مع أعظم أبطال التاريخ ، فقد كان هذا الرجل مثلاً من أمثال البطولة والشجاعة والاخلاص للوطن . فقد ثبت هذه المذكرات أن المعلم يعقوب لم يركب هذا المركب الخشن ولم ينضم الى الفرنسيين ولم يتبع الجيش الفرنسي في خروجه من مصر إلا لغرض تحقيق مشروع وطني هو الحصول على اعتراف الدول الأجنبية باستقلال مصر .

فقد جاء في خطاب ربان السفينة الحربية لابلاس التي أقلّت المعلم يعقوب ورجاله وفده الى المورد الأول للبحرية البريطانية

«لقد صرح لي (المعلم يعقوب) ان أي أنواع الحكم في مصر أفضل من حكم الترك وانه انضم الى الفرنسيين تلبية لباعث وطني علّه يخلف عن مواطنيه ما قاسوه ، وأضاف صديقه لاسكاريس ان الجنرال يعقوب الذي يرأس وفد فوّضه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوربية في أمر استقلال بلادهم .

ولكن شاءت الظروف أن يموت هذا البطل قبل أن يصل الوفد الى فرنسا فلم تلق جثته في عرض البحر كما هي العادة بل وضع في دن من الخمر لحفظها من الفساد حتى دفن في مرسيليا باحتفال عسكري مهيب اشترك فيه الجيش الفرنسي وأفراد الفيلق القبطي .

فجدير بنا نحن المصريين والقضية المصرية تجتاز أزمتها الحاضرة أن نذكر أبطالنا الذين سقطوا في ميدان الشرف . فقد كان المعلم يعقوب أول من استيقظ والناس نيام ونادى باستقلال مصر في عصر لم يكن يعرف ما هو هذا الاستقلال ، بل كان مجرد المناداة بالانفصال عن السلطان خيانة ممقوتة ؟

أليس جديراً بالحكومة المصرية وقد مضى بانقضاء هذا العام مائة وخمسون سنة على وفاة هذا البطل أن تقيم لروحه تذكارية تخلد اسمه ورسمه وشيئاً من تاريخه ؟

فان غفلت الحكومة عن هذا الواجب فلا أقل من أن تتنبه له لجنة من الشباب الجامعي فتقوم بواجب الوفاء نحو ابن من أبناء الوطن الأبطال الذين قدّموا حياتهم في سبيل وطنهم وتقترح اللجنة جمع التبرعات ولا أظنها إلا يسيرة ثم بانشاء اللوحة التذكارية لتقيمها في الدير الواسع وتكتب عليها —

(هنا نام المعلم يعقوب هنا أول مصري سقط في ميدان الشرف لأجل استقلال مصر).